

حول انهيار الدولة الأموية

دراسة مقارنة في سياسة يزيد بن عبد الملك ١٠١ - ١٠٥ هـ.

للدكتور عماد الدين خليل

إن القيام بمقارنة تاريخية بين رجلين كعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك تبدو على درجة من الأهمية لأكثر من سبب فهناك الارتباط الزمني حيث اعقب احدهما الآخر ، وهناك ذلك القدر الكبير من الأفعال وردود الافعال المتبادلة بين الرجلين . . التغاير العميق في تركيب الشخصيتين ، وتناقض رؤاهما ومواقفهما بالتالي . . الأمر الذي بلغ اقصى حدته في العبارة التي أوردها ابن الأثير « عمد يزيد الىٰ كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّه »[١] ، والتي يجيء هذا البحث لكي (يختبر) مدى صحتها . .

وهناك أيضا قرب عصر الرجلين من مرحلة سقوط الدولة الأموية ، والتكهنات المتناقضة التي حملها المؤرخون المعاصرون في الشرق والغرب هذا الخليفة أو ذاك ، باعتبار سياساته احدى عوامل ضعف الدولة ودمارها .

وفضلاً عن هذا وذاك فان الدراسة التي حللت بها اجراءات عمر تحت عنوان (ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) ، والتي تضمنت مقرراً من النقد والتقييم لسياسات الخلفاء الذين سبقوه ، تقودني بالضرورة الى تفحص اعمال وسياسات الرجل الذي اعقبه في قيادة الدولة الأموية : يزيد بن عبد الملك .

هل أدرك يزيد أبعاد مهمته التاريخية في أعقاب ذلك التغيير الشامل الذي أحدثه سلفه عمر ، والذي تبيّن باستقراء الوقائع التاريخية ، كم هو ضروري ليس فقط لتنفيذ عقائديات الاسلام في واقع الحياة ، وتحويل مجراها على هدى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وانما لديمومة واستمرار التجربة الأموية نفسها ؟ هل كان يزيد يملك رؤية عمل شاملة (استراتيجية) ، تنبثق عن فهم كلي عميق للموقف التاريخي ومقتضياته ؟ هل أدرك ان مهمته المركزية كانت تحتم عليه حماية التغييرات التي أحدثها سلفه ، وتعميقها وتوسيعها من اجل تمكين الدولة الأموية من

---

(١) الكامل في التاريخ ٦٧/٥ (دار صادر - بيروت ١٩٦٥) .



مواصلة طريقها .

كـلا . . ذلك ما تقودنا اليه الوقائع ، ليس لأن يزيد كان يحمل رغبة عشوائية ، بل حتىٰ مرسومة ومبرمجة ، لوقف اجراءات عمر أو هدمها ، كما قد توحي به عبارة ابن الأثير التي تتضمن قدراً من المبالغة وتقود الىٰ نوع من سوء الفهم . . إنما لأن يزيد ـ باختصار ـ ما كان يملك استشرافا عقائديا تاريخيا . . استراتيجية عمل شاملة تنبثق عن متطلبات العصر وتعمل علىٰ هدىً عقيدة بعيدة الأغوار ممتدة الآفاق .

فيزيد ، كما سنرىٰ ، كان يطمح احيانا للتشبه بعمر ، وكان احيانا اخرىٰ يدفع جيوشه في البر والبحر ، لتحقيق مزيد من الانتصارات للدولة الأموية ، وكان احيانا ثالثة يلوي رأسه للمعـارضـة ويحتـرمهـا ، ويستجيب لبعض مطالبها . ولكنه ، جنبا الىٰ جنب مع هذا ، كان يهدّم في اجراءات عمر ، ويبحر باتجاه مضاد حتىٰ ليكاد يبلغ الطرف النقيض الآخر ، ليس كرها ـ لسلفـه ، ولا رغبة في الاتيـان علىٰ معطياته ومحو دوره التاريخي ، ولكن لأن يزيد كان يعاني من تسطح ايمانه وضعفه ، ومن قصور الرؤ ية العقائـدية ـ اذا صـح التعبير ـ وتجزؤها . . كان ـ باختصار ـ في منزلة أدنى بكثير مما كان يتطلبه عصره !!

فنحن نجد ان الرجال الكبار الذين لعبوا دورا تاريخيا واسعا ، كان يعقبهم ـ حينا ـ رجال علىٰ مستواهم في الرؤية وفي القدرة علىٰ التنفيذ التـاريخي ، فيواصلون الـطريق ، ويمكنون التجربة ، ليس فقط من أن تضرب بجذورها في الأرض وانما من ان تزداد عـطاءً واتساعـا واثمارا . . وكان يعقبهم ـ حينا آخر ـ رجال دون المستوى المطلوب رؤ ية وقدرة على التنفيذ ، فتتعرض التجربة للانتكاس ، وربما للدمار . وليس شرطا ان يكون هؤلاء الذين هم اصغر من متطلبات العصر ، ممن يمارسون هدم معطيات اسلافهم ، يكفيهم ان يجمّدوا تدفق الحركة العملاقة التي احدثها اسلافهم في التاريخ . . يكفيهم ان يعاملوها بنوع من التسيّب والتفلت والاهمال واللااكتـراث ، لكي ما تلبث ان تتعرض للانتكاس .

ومن ثم فان رجلا كيزيد كان سيعرض تجربة عمر الانقلابية للانتكاس حتىٰ ولو لم يمارس ازاءها ذلك التخريب الواسع . . فيكفي انه أصغر حجما من عمر بكثير ، وانه مارس نوعا من اللااكتراث ازاء معطياته . . لكي تتحقق النتيجة نفسها .

ويبدو ان ابن الأثير ، وغيره كثيرون ، اصيبوا بخيبة أمل من جراء ما آلت اليه التجربة الكبيرة التي نفذها عمر بن عبد العزيز ، فطرح مقولته تلك من أن يزيداً عمد إلى ما صنعه عمر ، مما لم يوافق هواه فردّه بينما سنجد أن يزيد لم يعمد إلى رد كل ما صنعه عمر، مما لم يوافق هواه، وانما الى بعضه فحسب. . . والذي قاد الى الانتكاس ليس مجرد هدم هذا الجانب أو ذاك ، وانما هو فقدان الرؤ ية وضياع الاستراتيجية . . ولكن لما كانت النتيجة هي الانتكاس ، توهم ابن الأثير ومن تابعه فتصوروا ان يزيدا عمد الى كل ما صنعه عمر فرده . . وليس ذاك !!

(٢)

لنبدأ بسياساته الداخلية والخارجية ازاء القوىٰ والجماعات التي كانت تتواجد داخل الدولة أو علىٰ حدودها .

كان عمر بن عبد العزيز ، في الداخل ، يسعىٰ الى تجميع الطاقات ووقف نزيف الدم المسلم وكسب قوىٰ المعارضة باعتماد الحوار السلمي بدلا من القمع المسلّح ، وتوجيه موارد الدولة للإعمار والإنماء ، وتنفيذ برامج الضمان الاجتماعي بدلا من إهدارها في ملاحقة الثورات الداخلية المسلحة ، أو الاعمال العسكرية والاستعراضية في الخارج . وكان يتحرك علىٰ ضوء ضرورة تكوين قاعدة بشرية موحدة تسند الدولة وترفدها وتحميها ؛ ويرفض بالتالي أي تمزق قد تتعرض له هذه القاعدة سواء باسم العصبية القبلية أو الحزبية أو أي اسم آخر .

في الخارج سعىٰ عمر الىٰ كسب الشعوب المجاورة واستمالة حكامها بفتح باب الكلمة والاقناع ، وبتقديم اغراءات مالية ، وبوقف الاستفزازات الحربية التي قد تتكون نتائجها ـ بحساب الخسائر والأرباح ـ ليست في مصلحة الدولة ، فكيف بحساب العقائد والافكار ؟ وهو الذي طرح شعار « ان الله بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا » ؟ .

وليس هذا ـ بطبيعة الحال ـ مجال استعراض سياسات عمر في الداخل والخارج لأن هذا يقودنا الى تكرار ما سبق أن عرضنا له بالتفصيل في كتاب (ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) ، ويكفي ـ لغرض المقارنة فحسب ـ ان نطرح بايجاز بالغ الخطوط العريضة لهذه السياسات .

ما الذي فعله يزيد ؟

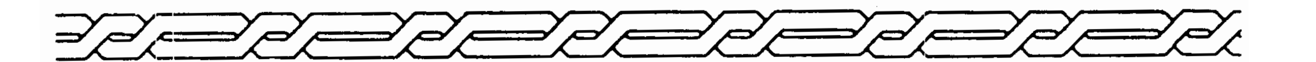
ما من ريب في أن اكثر اجراءاته تضادا مع سياسة سلفه عمر تلك التي تتعلق بموقفه من أزمة الأمويين المستعصية : العصبية القبلية .

لعل من سوء حظه ان تنفجر ـ لأول عهده بالخلافة ـ ثورة يزيد بن المهلب (اليمانية) في العراق ، وأن تدفعه عبر أيام الصراع القاسي الطويل ، وبعده ، الى سلسلة من ردود الأفعال تنتهي به الىٰ ان يعلن وقوفه صراحة الىٰ جانب القيسيين ، ويمنحهم مقدرات الدولة سلماً وحربا ، رغم أن اليمانية كانوا أغلب سكان الشام قاعدة الأمويين ، وبهذا تعود القاعدة العربية ، التي سهر عمر علىٰ حماية وحدتها ، الىٰ التمزق ثانية بين عرب شمال وعرب جنوب ، وتعود القيادة الأموية الىٰ تعميق الانشقاق بمحاباة هذه الكتلة أو تلك . . ليس هذا فحسب ، بل ان يزيد اتخذ اجراء خطيرا بهذا الصدد وذلك بانقاصه عطاء اليمانية وجعله نصف عطاء المضرية مما ادىٰ الى حدوث اضطراب في الشام نفسه[1] .

ومما زاد من قوة ميل يزيد الىٰ القيسية وبغضه

---

(١) انظر : عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ٢/٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، الطبعة الثالثة (مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ـ ١٩٦٦) عن Theophanis, p. 412 .



لليمانية ، علاقات المصاهرة التي ربطته اكثر بقيس ، تلك العلاقات التي كان لها أبلغ الأثر في انتماءات العديد من الخلفاء والقادة الأمويين الذين سبقوا يزيدا أو أعقبوه . . وها هو ذا يواصل السير علىٰ نفس الطريق .

فلقد كانت ليزيد صلات وثيقة بالحجاج (رجل قيس) ، وهو تزوج ابنة محمد بن يوسف اخي الحجاج نفسه فانجبت له في حياة الحجاج ابنه الوليد الذي صار خليفة فيما بعد ، وقد اسمت ابنها الأول الذي توفي ، على اسم خاله : الحجاج . ومن جراء ذلك كان يزيد بن عبد الملك يبغض يزيد بن المهلب منذ عهد ما قبل خلافته ، وكان هذا واليا علىٰ العراق ، وقد عذب آل الحجاج ، وكان من المستظلين بظل سليمان ، فلما تولى يزيد الخلافة لم يتوقع ابن المهلب منه خيرا[١] .

وليس هنا مجال الحديث عن ثورة ابن المهلب فلقد أشبعها القدماء والمحدثون بحثا[٢] ، وانما بصدد الاشارة الىٰ أبعادها القبلية وردود الأفعال التي رافقتها . يشير ابن الأثير الى ان الخليفة لدى سماعه بهرب يزيد بن المهلب أمر عامله علىٰ البصرة ، عدي بن أرطأة ، ان يأخذ من بالبصرة من آل المهلب ، فأخذهم وحبسهم . وسرعان ما اتضّحت الأبعاد القبلية للثورة ، اذ وقفت تميم وقيس وأهل الشام الىٰ جانب عدي ، ولكن ابن المهلب تمكن ، في البداية ، من تحقيق عدة انتصارات ضدهم . وألقىٰ عبد الحميد بن عبد الرحمن ، عامل الكوفة ، القبض علىٰ خالد بن يزيد بن المهلب وحمال بن زهر ، رغم انهما لم يكونا في شيء من الأمر ، وأوثقهما وسيرهما إلى الشام فحبسهما الخليفة وظلا في السجن حتىٰ هلكا فيه[٣] . واستمر التشنّج يحكم تصرفات الخليفة حتىٰ بعد فشل الثورة ، فكتب الىٰ أحد قادته في العراق يأمره بضرب رقاب الأسرىٰ ، فكان المسؤول عن شرطته يخرجهم عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين ، الىٰ أن جاءه كتاب مسلمة بن عبد الملك يأمره بترك قتل الأسرى[٤] ، ولكنه - من جهة أخرى - بعث يطاردهم شرقا حتىٰ كاد أن يأتي عليهم[٥] ، وحمل بقية الأسرىٰ الىٰ يزيد وكانوا ثلاثة عشر رجلاً فأمر بقتلهم[٦] .

ويذكر خليفة بن خياط ان أسرىٰ المهالبة لما دخلوا علىٰ يزيد قام الشاعر المعروف كثير عزة فالقىٰ أبياتا طلب فيها العفو من يزيد :

فعفوا أمير المؤمنين وحسبة
فما تحتسب من صالح لك يكتب . . . الخ

---

(١) يوليوس فلها وزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٠٢ ، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ـ ١٩٦٨) .

(٢) وبخاصة الطبري وابن الأثير .

(٣) محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥٨٥/٦ ، تحقيق ابي الفضل ابراهيم ، (دار المعارف ، القاهرة ـ ١٩٦٤ ـ ١٩٦٦) ، ابن الأثير : الكامل ٧١/٥ ـ ٧٥ .

(٤) الطبري : تاريخ ٥٩٨/٦ ـ ٥٩٩ ، ابن الأثير : الكامل ٨٤/٥ ـ ٨٥ .

(٥) الطبري : تاريخ ٦٠٠/٦ ـ ٦٠٢ ، ابن الأثير : الكامل ٨٦/٥ ، علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٢٠٠/٣ ـ ٢٠١ (دار الأندلس ـ بيروت)

(٦) الطبري : تاريخ ٦٠٢/٦ ، ابن الأثير : الكامل ٨٧/٥ .



فما كان جواب يزيد الا ان قال : لا كانت بك الرحم ، لا سبيل الىٰ ذلك ، والتفت الىٰ اصحابه قائلا : من كانت له ، قبل ، الىٰ المهلب دم فليقم ، ودفعهم اليهم حتى قتل نحوا من ثمانية[1] . حتىٰ نساء المهالبة لم ينجين من العقاب فقد سيق الى دمشق خمسون منهن حبسن هناك [2] .

وفي الطرف الآخر حاول يزيد بن المهلب ـ عبثاً ـ ان يتجاوز مواقع العصبية ، وان يجعل الهدف الديني ـ الاجتماعي الشامل منطلقا لثورته ومطمحا لها في الوقت نفسه . « دخل رجل من الأزد ، جمع جموعا ، فبايعه ، فكانت بيعة يزيد : يتابعون علىٰ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وعلىٰ الا تطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا ، ولا يعاد علينا سيرة الفاسق الحجاج ، فمن بايعنا علىٰ ذلك قبلنا منه ، ومن أبى جاهدناه» [3] . ويروىٰ أن ابن المهلب خلع الخليفة ودعا الى الرضا من بني هاشم أو الشورى في اختيار الخليفة ، فكانت بيعته علىٰ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ [4] . ونقرأ في الطبـري ، وابن الأثير ، هذا الحوار الذي سبق الاشتباك والذي دار بين ابن المهلب واحد كبار مؤيديه . . . قال السميدع لابن المهلّب : انا قد دعوناهم الى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وقد زعموا انهم قبلوا هذا منا فليس لنا ان نمكر ولا نغدر حتى يردوا علينا ما زعمـوا انهم قابلوه منـا . . فقـال يـزيـد : ويحكم !! اتصدقون بني أمية انهم يعملون بالكتاب والسنة وقد ضيعوا ذلك منذ كانوا ؟ انهم يخادعونكم ليمكروا بكم فلا يسبقوكم اليه . . قالوا : لا نفعل ذلك حتىٰ يردوا علينا ما زعموا انهم قابلوه منا [5] .

ونستطيع ، من خلال هذا الحـوار ، ان نخمّن ، كيف ان أبي المهلب لم يكن مخلصا كل الاخلاص لهدفه الديني ، وانما اراد من اطروحاته في هذا الصدد ان يكسب مزيدا من الأنصار وان يغطي على الوجه القبلي الصارم لثورته . وقد كسب بذلك الاتباع فعلا ، والحوار نفسه يبين لنا كيف ان هؤلاء الاتباع كانوا مخلصين الى حد كبير في التشبث بالهدف الديني الاجتماعي للثورة التي انتموا اليها .

وهذا يقودنا الىٰ ذلك (الصوت) الديني الذي انطلق من حنجرة كبير زعماء الذكـر الاسـلامي في البصـرة يـومـذاك : الحسن البصري . . منددا بهذه الثورة ، داعياً الىٰ ارفضاض الناس عنها ووقف تأييدها ، كاشفا عن أبعادها الحقيقية . ونحن نشير هنا الى واحد فحسب من مواقف الحسن البصري ازاء ثورة ابن المهلب .

جمع ابن المهلب اهل البصرة وقام خطيبا

---

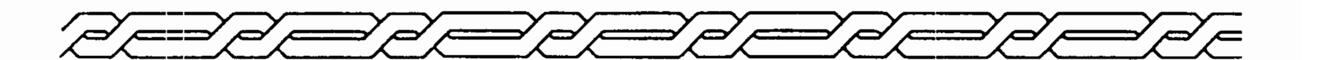
(١) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ١/٣٣٤ ، تحقيق اكـرم ضيـاء العمـري (مـطبعـة الآداب ، النجـف الأشرف ـ ١٩٦٧) .

(٢) احمد بن أبي يعقوب اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٣/٥٥ (المكتبة الحيدرية ، النجف ـ ١٩٦٤) .

(٣) الطبري : تاريخ ٦ / ٥٩٢ .

(٤) التاريخ السياسي ٢/٢٧٥ .

(٥) الطبري : تاريخ ٦/ ٥٩٣ ، ابن الأثير : الكامل ٥/٨٠ .



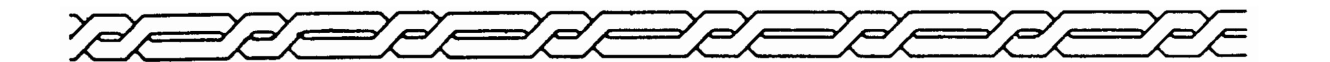
فيهم وأخبرهم انه يدعوهم الىٰ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وحثهم على الجهاد ، وزعم ان جهاد اهل الشام اعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم (الوثنيين) . وكان الحسن البصري يسمع فرفع صوته قائلا : والله لقد رأيناك واليا وموليٰ عليك فما ينبغي لك ذلك . فما كان من أصحاب ابن المهلب الا ان وثبوا عليه وأرغموه علىٰ السكوت . . ولدىٰ مغادرته المكان مرّ بحشود من الناس نصبوا الرايات وراحوا ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون : تدعونا الىٰ سنة العمرين . فقال الحسن : كان يزيد (ابن المهلب) بالأمس يضرب اعناق هؤلاء الذين ترون ثم يرسلها الىٰ بني مروان يريد رضاهم ، فلما غضب قال : اني قد خالفتهم فخالفوهم . . ان من سنة العمرين ان يوضع في رجله قيد ثم يرد الى محبسه . فقال قوم من اصحابه : لكأنك راضٍ عن أهل الشام ؟ أجاب : قبحّهم الله وبرّحهم ، اليس هم الذين أحلُّوا حرم رسول الله ﷺ . . لا ينتهون عن انتهاك حرمة ، ثم خرجوا الى بيت الله الحرام فهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين احجارها واستارها (١) .

فها هو موقف الحسن البصري ، الذي يتميز بالشجاعة والصراحة والموضوعية ، يلقي مزيدا من الضوء علىٰ الدوافع الحقيقية لثورة ابن المهلب ، وذلك الزعيم القبلي الذي حبسه عمر ابن عبد العزيز ، ونفاه ، لتلاعبه باموال الدولة . انها العصبية والرغبة في الانتقام ، وليست دعوته الىٰ كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام وسيرة الشيخين رضي الله عنهما الّا محاولة ذكية منه لكسب شعبية اكبر والتغطية علىٰ الدوافع الحقيقية لحركته .

ومهما يكن من أمر فان ردود الأفعال القبلية استمرت ، زمناً ، بعد سحق ثورة ابن المهلب ، وامتدت في المكان أيضا حتىٰ بلغت خراسان شرقا . وذلك ان الخليفة يزيد ، بعد ان استدعى اليه مسلمة بن عبد الملك ، امير الأمويين علىٰ العراق وولايات المشرق ، عين مكانه عمر بن هبيرة الفزاري الذي كان في عهد عمر بن عبد العزيز واليا على الجزيرة ، وكان قيسيا من انقىٰ دم في قيس ، وكانت ادارته متمشية مع ذلك . ولقد لقيت قبائل الأزد واليمن بوجه عام ، خصوصا في خراسان ،علىٰ يديه عنتاً فأبعدوا وأهينوا ، وعذب الموالون للمهالبة أو المتهمون بذلك وأخذت أموالهم . ولكن كانت قيس هي التي انتصرت واستطاعت ان تشعر بانها هي السيدة في المشرق كله ، وهي وان كانت متنازعة فيما بينها فانها اخلصت في الاتحاد امام القبائل الأخرىٰ . لقد بلغ الأمر من الانكشاف ان اصبح معلقا علىٰ ألسنة الشعراء . . وها هو الفرزدق يقول متهكماً ، بعد أن عين ابن هبيرة الفزاري علىٰ العراق والمشرق :

ولقد علمت لئن فزارة أمّرت
أن سوف تطمع في الامارة اشجع!!

(١) الطبري : تاريخ ٥٨٧/٦ ـ ٥٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ٧٥/٥ ـ ٧٦ وانظر عن البعد الديني لحركة ابن المهلب : فلهاوزن : الدولة العربية ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ وهوامشها .



وكانت فزارة هي رأس غطفان قيس وعرب الشمال وكانت أشجع ذنبهم[1] . . وفي عهد عمر ، ما كان بمقدور الفرزدق ، ولا غيره ، ان يترنّم بأبيات كهذه .

قد يقال بان يزيد بن عبد الملك كان مضطرا ازاء عنف الثورة التي قادها المهالبة اليمانيو الأصل الىٰ ان يرمي بثقله على القوات القيسية ، وان يزداد مركز الأخيرة ، بسبب من جلبها الأنصار للأمويين ، مع ملاحظة ان قضاعة اليمانية لعبت دورا أساسيا في الانتصار على المهالبة وان الكلبيين هم الذين طاردوا هؤلاء واستأصلوا شأفتهم .

ولكن بالتمعن في الأمر يبدو ان المسألة ليست بهذه الصيغة المقفلة ، وليس الارتماء في احضان كتلة قبلية من اجل مجابهة كتلة اخرىٰ طريقا مسدودا ليس الى الخروج منه من سبيل . . ابداً ، فمن جهة ، ضرب لنا عمر بن عبد العزيز مثلا علىٰ الارتفاع فوق مستوىٰ الصراعات القبلية ، وتحييد الجهاز الحكومي ، وتفتيت مراكز القوات القبلية . وهو وان كان قد امتصّ كل ما من شأنه ان يقود المعارضة الى حركة مسلحة واسعة النطاق ، فانه ـ حتىٰ ولو افترضنا وقوع حادثة كهذه ـ فيقينا ما كان الخليفة ليتراجع امامها ويميل بثقله صوب الكتلة المعارضة قبليا . كان قد جعل الجيش ، اداة الدولة الضاربة ، قوة متماسكة موحدة ، تمارس مهماتها الفنية الصرفة بعيدا عن التحزبات القبلية التي رفعها الخليفة كلية . ومن خلال هذه الأداة المجردة عن الهوىٰ ، البعيدة عن الميل ، كان بمقدور عمر أو أي خليفة يمكن أن يتابع سياسته ، ان يضرب معارضيه دون ان يميل الىٰ هذه الكتلة أو تلك ، ودون ان يعطيها الاشارة لكي تستغل انتصارها وتمدّ نفوذها ، وتشكل مركز قوة يهدد وحدة الدولة ووحدة قواعدها العربية ، كما حدث في كثير من الفترات التي نكب فيها التاريخ الأموي بضياع هذه الوحدة من جراء عدم قدرة بعض الخلفاء علىٰ تحييد اجهزة الدولة وبخاصة الجيش .

وحتىٰ ولو افترضنا بأن خليفة كعمر وجد نفسه مضطرا ازاء ثورة يمانية ، كتلك التي قادها المهالبة ، للاعتماد بالمقابل علىٰ القيسيين ، وانتصر في نهاية الأمر بأذرع هؤلاء ، فانه كان يعرف كيف يقف في اعقاب الانتصار عند نقطة التوازن ، ويفطم القيسيين المنتصرين عن قطف ثمار انتصارهم لأنفسهم لا للدولة وأمنها ووحدتها ، وسيعرف كذلك كيف يكبح جماح الغضب ، وهو الخليفة الأب ذو الصدر الواسع والقلب الرحيم ، فلا يصب جام نقمته علىٰ المنهزمين قتلا واسراً وتشريداً ومحاولة لبيع الذراري في الأسواق ، كما حدث في العراق والمشرق ازاء المهالبة حيث صُفّوا تصفية جسدية رهيبة : رجالاً وشيوخا وصبيانا ، وحيث اقسم مسلمة ان يبيع ذراريهم مخالفا بذلك آداب الاسلام ـ كما يشير فلهاوزن ـ لولا ان الجراح الحكمي انقذ ما تقضي به هذه الآداب واقنعه بالعدول عن هذا الأسلوب ، فاكتفىٰ مسلمة

---

(١) فلهاوزن : الدولة العربية ص ٣١٠ والهامش رقم ٣ من الصفحة نفسها .

بارسال تسعة فتية احداث الى يزيد لكي يضرب أعناقهم .

ان الخليفة الذي يمثل قمة الدولة وارادتها النافذة يجب الا يمضي مع عواطفه كشخص ، أو حتى قائد أو والٍ منتصر . . انه يجب ان يرتفع فوق هذا كله ، لأنه ما دام قد انتصر وأبعد عن دولته شبح الهزيمة والانكسار ، فان له ان يمسح بيده على جروح المنهزمين ما دامت قواهم قد تفتت دماراً وما داموا قد اصبحوا في حال لا يشكلون معها ايما خطر أو تهديد حقيقي للوجود الأموي . . الم نر كيف ان الخليفة عبد الملك بن مروان بذل محاولات دائبة لمصالحة القيسيين والمسح على جروحهم التي اثخنهم بها اليمانيون في معركة مرج راهط زمن أبيه مروان بن الحكم ، وكيف انه بمصالحة هؤلاء تمكن من حماية ظهره والتحرك لمجابهة مشاكله في العراق وهو مطمئن الى عرب الشام : قيسيّهم ويمانيهم ؟

ليس اذن ردّ الفعل القبلي هذا حتمية مقفلة وطريقا مسدودا ، لكن يزيد اختار أن يمارس سياسات بعض اسلافه وبعض اخلافه ففتحوا على أنفسهم الثغرة التي نفذ منها الخراب فجعل عاليها سافلها . ونظرة سريعة الى ما شهدته الساحة الخراسانية ايام اطلّ العباسيون برؤوسهم من ارض خراسان نفسها ، ترينا حجم النتائج التي يمكن أن تتمخض عن هذه السياسة أو تلك تجاه المسألة القبلية .

يقول فلهاوزن بصدد تعليقه على سياسات يزيد القبلية « كان تخوفه وارتيابه من مطامحهم في المشرق لهما ما يبررهما ، وكانت ثورتهم سببا في انفجار بغضه القديم لهم ، وكان افناء جميع افراد ذلك البيت القوي النابه ، وهي فعلة لم يسمع بمثلها في طول تاريخ الدولة الأموية ، كان بمثابة اعلان الحرب على قبائل اليمن . وكانت نتيجة ذلك ان حكومة بني أمية انقلبت حزبا يحكم باسم قيس . وكان الخليفة هو الذي يحمل الوزر في ذلك، وقد عين ابن هبيرة أميراً على العراق وتركه في ميدان امرته الواسع يفعل ما يشاء ؛ ولم يكن من شيء قد بعثه على ذلك الا مجرد الرغبة في الانتقام ، وكان بعيدا عن ان يكون رجلا سياسيا يدرك مصالح الدولة ، ولم يكن يدرك مدى النتائج السياسية لأعماله »[1] .

لقد كان عمر بن عبد العزيز يكره ، هو الآخر ، يزيد بن المهلب ، وقال عنه انه ينتمي الى اسرة جبابرة لذا فهو يبغضه ، وكانه يشير بذلك الى جبروت هذه الأسرة واحتمالات تشكيلها مركز ثقل يهدد وحدة الدولة الأموية وارادة سلطتها العليا . لكنه لم يتعامل مع رأس هذا المركز باعتباره يمثل كتلة قبلية من ازد اليمن ، ولم يخطر له هذا على بال ، وانما تعامل معه باعتباره سارقا لأموال الدولة وقوت شعبها ، وتجاوز ـ بقوة شخصيته والتفاف ابناء امته حوله ـ كل ردّ فعل قد يتمخض عن الضغط على ابن المهلب وارغامه على تسليم الأموال ،

---

(١) الدولة العربية ص ٣١٢ .



ثم اعتقاله ونفيه فيما بعد ، وهو في كل اجراءاته تلك يتابع تنفيذ المعادلة بشكلها الصحيح : الحكومة التي يتوجب عليها ان تحمي اموال الأمة من سارقي أموالها . . وليس في المسألة بعد هذا أي بعد عصبي ، ولو اطلّت العصبية من خلاله ، من حيث لا يريد الخليفة ان تطل ، لعرف كيف يسحقها !!

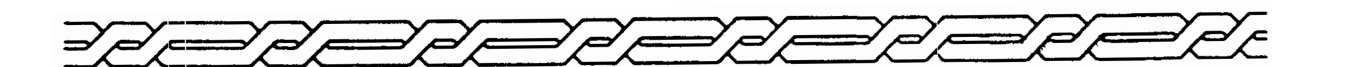
(٣)

وماذا عن القوىٰ الأخرى في المجتمع ؟

في اعقاب وفاة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ هـ احب عبد الحميد بن عبد الرحمن ، امير الكوفة ، أن ينال الحظوة لدىٰ الخليفة الجديد ، يزيد ، فكتب الى محمد بن جرير يأمره بقتال شوذب ، الزعيم الخارجي المسمىٰ بسطام ، قبل ان يرجع رسولاه الىٰ عمر حيث كان قد استدعاهما لفتح باب الحوار السلمي معهما وصولا الى الحق والتزاما به ، بعيدا عن رفع السلاح وسفك الدم ، وقبل ان يعلم الخوارج ـ كذلك ـ بوفاة عمر . . فلمّا رأوا القائد الأموي يستعد للحرب ارسل اليه شوذب يقول : ما اعجلكم قبل انقضاء المدة ؟ اليس قد تواعدنا الىٰ ان يرجع الرسولان ؟ فارسل القائد الأموي محمد بن جرير : انه لا يسعنا ترككم علىٰ هذه الحال . فقال الخوارج : ما فعل هؤلاء هذا الا وقد مات الرجل الصالح . وبدأ القتال الذي ما كان اشتعاله ضربة لازب على الاطلاق ، واصيب نفر من الخوارج وقتل الكثير من اهل الكوفة وانتهىٰ الأمر بهزيمتهم وجرح قائدهم ابن جرير ، وتبعهم الخوارج حتى مشارف الكوفة ، ثم آثروا الانسحاب الى اماكنهم في الجزيرة . وأقام شوذب ينتظر صاحبيه فقدما عليه واخبراه بموت عمر . وبعد ايام وصلهم قائد اموي آخر على رأس الفين من الرجال واخبرهم ان الخليفة الجديد لا يفارقهم على ما فارقهم عليه عمر ، فلعنوه ولعنوا يزيدا معه وشنوا عليه هجوما انتهى بقتله وعدد من اصحابه بينما تراجع الآخرون باتجاه الكوفة ، فوجه يزيد جيشا ثالثا ورابعا لم يكن مصيرهما بأحسن من مصير الجيشين اللذين سبقاهما . . واقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مسلمة بن عبد الملك الكوفة ، فشكا اليه اهلها مكانة شوذب وخوفوه منه فأرسل اليه مسلمة سعيدا بن عمرو الحرشي ، وكان فارسا مقاتلا ، على رأس عشرة آلاف مقاتل ، فلما رأى شوذب واصحابه ما لا قبل لهم به قال لهم : من كان يريد الشهادة فقد جاءته ومن كان يريد الدنيا فقد ذهبت ، فكسروا اغماد سيوفهم وحملوا على خصمهم فكشفوه واصحابه مراراً ، حتى خاف القائد الأموي الفضيحة فوبخ اصحابه وقال : أمن هذه الشرذمة لا أب لكم تفرون ؟ يا أهل الشام يوماً كأيامكم . فحملوا عليهم ، فطحنوهم طحنا وقتلوا شوذبا وعددا كبيرا من اصحابه ، فصفيت بذلك ثورتهم[1] .

وثمة ثورات مسلحة أخرىٰ قادها الخوارج في اماكن مختلفة من الدولة ، وبخاصة في اليمامة

(١) الطبري : تاريخ ٦ /٥٧٥ ـ ٥٧٧ ، ابن الأثير : الكامل ٥/٦٨ ـ ٧٠ .



والبحرين المطلتين علىٰ الخليج العربي حيث قاد الخوارج هناك رجل يدعىٰ مسعود العبدي . كان قد غلب علىٰ البحرين واليمامة تسع عشرة سنة ، فتصدىٰ له العامل الأموي وتمكن من قتله ، فقام بالأمر من بعده هلال بن مدلج ، وبعد صراع عنيف بين الطرفين انتهىٰ الأمر بتصفية حركة الخوارج هناك(١) .

وفي الجزيرة اشتعلت ثورة خارجية اخرى عام ١٠٥ هـ قادها خوارجي يدعىٰ عقفان لكنها لم توفق الى كسب قدر كاف من الأنصار ، فأراد الخليفة ان يوجه اليه جندا لقتاله فقيل له : انه ان قتل بهذه البلاد اتخذها الخوارج من بعدها دار هجرة ، والرأي ان تبعث الى كل رجل من اصحابه رجلا من قومه يكلمه ويرده ، ففعل ذلك ، فما كان من أهليهم الا ان قالوا لهم : انا نخاف ان نؤخذ بكم !! وانتهى الأمر بطلب الأمان ، وبقي عقفان وحده فبعث اليه يزيد اخاه الذي تمكن من استعطافه وردّه (٢) وهكذا انتهت هذه الثورة (المحدودة) دون ان تراق قطرة دم واحدة .

وكان بمقدور يزيد ان يتأسىٰ بسياسات سلفه ازاء هذه الكتلة من المواطنين وان يعتمد معها الحوار السلمي المفتوح الذي يعتمد الكلمة والبرهان بدلا من العنف وإراقة الدماء ، ولكنه اختار الطريق التقليدي الثاني رغم ما يجره علىٰ الدولة ، من وراء الانتصارات التي يحققها ، من خسائر في الأرواح والأموال ، ومما هو اكبر من ذلك . . تفتّت وحدة المجتمع الاسلامي وتغلغل مشاعر الحقد والبغضاء في النفوس حيث تزيدها الهزائم عمقا وسعارا . . وها هي أربعة جيوش أموية تهزم ويقتل غدد كبير من قادتها وجندها ، لا لشيء الا لأن يزيد استجاب لرغبة واليه في العراق أحب ان يتقرب اليه بشن الحرب على اصحاب شوذب قبل أن يعرفوا مصير محادثاتهم مع الخليفة السابق عمر بن عبد العزيز .

ومهما يكن من أمر فان يزيد قد جرب هو الآخر ، مع تلك الثورة الصغيرة التي قادها عقفان ، اسلوب الاقناع السلمي ، والمرونة السياسية ، وانتهىٰ الأمر بتصفية هذه الثورة دون اراقة قطرة من دم . فليست اساليب عمر في هذا المجال هي وحدها التي لقيت نجاحا .

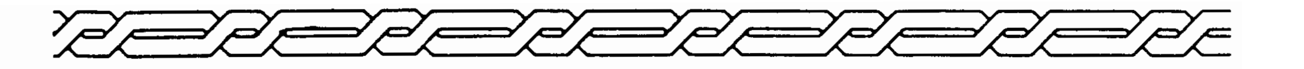
والحق ان يزيداً ما كان يركب رأسه دوما ويمضي على الطريق المعوج الى غايته ، فنحن نجده بين الحين والحين يعرب عن رغبة عميقة واستعداد مفتوح لتصحيح الخطأ وتداركه قبل فوات الأوان ، واحيانا يتحرك ـ في الوقت المناسب ـ لإطفاء النار قبل اشتعالها ، لكن مواقفه هذه لا تعدو ان تكون استثناء لقاعدة أوسع هي التي وصمت سياساته جميعا .

في المدينة المنورة تلقىٰ عامل يزيد ، عبد الرحمن بن الضحاك ، امرا بعزله بعد ولاية دامت ثلاث سنين بسبب من محاولة هذا العامل ارغام فاطمة بنت الحسين بن علي التزوج به

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٥/ ١١٨ ـ ١١٩ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ١١٨ ، وانظر ص ١١٩ ـ ١٢٠ من المصدر نفسه حيث يشير ابن الأثير الى ثورة خارجية اخرى ربما تكون تصفيتها قد تمت في عهد هشام بن عبد الملك .



ورفضها تهديداته ، وارسالها الى الخليفة من يرفع شكواها اليه .

غضب يزيد غضبا شديدا ، وجعل يضرب بخيزرانة في يده ويقول : لقد اجترأ ابن الضحاك . هل من رجل يسمعني صوته في العذاب ؟! قيل له : عبد الواحد النضري . فكتب بيده اليه : قد وليتك المدينة فاهبط اليها واعزل عنها ابن الضحاك وغرمه اربعين الف دينار ، وعذبه حتى اسمع صوته وانا على فراشي !! فلما علم ابن الضحاك بذلك استجار بمسلمة بن عبد الملك فاجتمع هذا بالخليفة وتوسط لديه ، ولكن يزيدا أجاب : كل حاجة فهي لك الا ابن الضحاك ، فوالله لا أعفيه أبدا . وردّه الىٰ المدينة حيث استلمه النضري فعذبه عذابا شديدا ، وانتهىٰ الأمر بالوالي السابق الى ان يلبس جبة من صوف يسأل الناس . وكان ابن الضحاك قد أذى الأنصار جميعا فهجاه الشعراء وذمّه الصالحون . فلما ولي النضري احسن السيرة فأحبوه ، وكان رجلا خيرا ، لا يقدم على فعل الا بعد استشارة كبار رجالات المدينة وبخاصة القاسم بن محمد بن ابي بكر وسالم ابن عبد الله بن عمر[2].

فها هو ذا الخليفة يمتص باجرائه الحاسم هذا غضب العلويين والأنصار ويوفر على الدولة جهدا كبيرا ، وعلىٰ وحدة المجتمع شرخاً محتملا . .وقريب من هذا ما حدث في المغرب ازاء كتلة اخرى من المسلمين : البربر ، فها هنا ايضا نجد الخليفة يمتلك القدرة على ضرب فرامله في الأرض ووقف الخطأ قبل ان يتدحرج بماكنة الدولة الإدارية هناك الى ثغرةٍ : عميقة فيصيبها بالأذى .

كان الخليفة الجديد قد استعمل على افريقية يزيد بن ابي مسلم مولى الحجاج وصاحب شرطته على المغرب ، وهو رجل دميم قصير اشتهر بقسوته ، وكان سليمان قد عزله عن العراق كما ان عمر بن عبد العزيز حبسه . فسار يزيد في أهالي افريقية، يقول ابن الأثير «سيرة الحجاج في أهل الاسلام الذين سكنوا الأمصار ممن كان اصله من السواد من أهل الذمة فاسلم بالعراق ، فانه ردّهم الى قراهم ووضع الجزية على رقابهم علىٰ نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار . . » فخالف بذلك من سياسات عمر بن عبد العزيز وزاد على ذلك بأن أخذ يرسم اسم حرسه علىٰ ايدي البربر كما تصنع الملوك من غير المسلمين وفرض على أحد أبناء موسىٰ بن نصير ان يعطي ارزاق الجند من ماله الخاص مدة خمس سنين ، فلما اعلمه بعدم قدرته علىٰ ذلك حبسه ، وأخذ موالي موسىٰ بن نصير فوسم ايديهم وردّهم الى الرق . فما كان من البربر الاّ ان اجتمع رأيهم علىٰ قتله فثاروا به وقتلوه وولوا علىٰ أنفسهم الرجل الذي كان عليهم قبل يزيد ابن أبي مسلم وهو محمد بن يزيد وكتبوا الى الخليفة : انا لم نخلع ايدينا من طاعة ولكن يزيد ابن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك . فما كان من الخليفة الا ان اجابهم بما تقضيه الحكمة : اني لم أرض

---

(١) الطبري : تاريخ ١٢/٧ـ١٤ ، ابن الأثير: الكامل ١١٣/٥ـ١١٤ ، اليعقوبي : تاريخ ٥٦/٣ .

بما صنع يزيد ، وأعلمهم انه أقر محمد بن يزيد على عمله ، لكنه سرعان ما تراجع عن خطوته هذه واستبدل ابن يزيد ببشر بن صفوان الذي اعتمد ـ الى حدّ ما سياسة معادية للبربر وواصل تعذيب آل موسىٰ بن نصير [١] .

ولا نستطيع ، بعد هذا كله ، ان نتبين ليزيد ابن عبد الملك سياسة داخلية واضحة ، مستقلة الشخصية ثابتة الأركان بعيدة عن الاهتزازات الوقتية السريعة للأفعال وردودها . وكان في علاقاته مع كتل مواطنيه بوجه عام ، اقرب الى سياسات الكثيرين من خلفاء بني أمية ، وبخاصة المتأخرين منهم ، منها الى سياسات عمر بن عبد العزيز . وسواء تعمد هذا أم لم يتعمده ، فان الذي حدث هو انه مارس الى حد كبير نقضا سيئا للاجراءات التي حققها عمر على هذا الطريق ، وانتهى الأمر كما يبدو ـ الى تفتت اصاب المجتمع الاسلامي ، وشروخ أخذت تزداد ـ فيما بعد ـ عمقا على الأيام .

(٤)

وما كانت سياسات يزيد في الخارج لتقل ارتجالاً وفوضى وتناقضا عما كانت عليه في الداخل . . ومشكلة الرجل ها هنا يمكن ان تتبلور بكلمة واحدة : انه لم يكن يملك استراتيجية واضحة الأبعاد ازاء العالم الخارجي شعوبا وحكاما . . لاستراتيجية حرب لفتح العالم ومدّ رقعة الأرض كما فعل أخوه الوليد ، ولاستراتيجية علاقات سلمية تعتمد قوة الفكر وعمق العقيدة لفتح قلوب الأمم والشعوب للدين الجديد ومد الاسلام الى المشرق والمغرب ، كما فعل عمر بن عبد العزيز .

علىٰ العكس ، انه يمارس ها هنا ايضا نقضا للمكاسب الكبيرة التي حققها سلفه بسياساته السلمية المفتوحة ، فاعاد فرض الجزية على جماعات من سكان ما وراء النهر كان عمر قد اسقطها عنهم بعد ان اعلنوا اسلامهم [٢] . واعتمد عماله هناك العنف والقسوة ازاءهم ، الأمر الذي جرّ الىٰ نقض أغلب ممالك المنطقة حلفها مع المسلمين مثل الصغد وفرغانه وكش ونسف ، بل ان كثيرا من الأهالي ارتدوا عن الاسلام الذي كانوا قد اقبلوا عليه في عهد عمر . وشغل العرب بمنازعاتهم القبلية فلم يهتموا باخماد ثورة الأهالي حتى وسموا بالجبن . واستفحلت الفتنة بحيث انه لما أرسل مسلمة من العراق عاملا اسمه سعيد سموه سعيد خزينة لضعفه ولينه ، وهزموه هزيمة منكرة . فلما تولىٰ عمر بن هبيرة العراق عزل خزينة وأرسل بدله قائدا اسمه ابن عمر الحرشي حقق عدداً من الانتصارات وصالح كثيرا من بلاد ما وراء النهر الثائرة ، لكن ابن هبيرة ما لبث ان عزله في السنة الأخيرة من خلافة يزيد وتولاها مسلم بن سعيد الذي لم يفعل شيئا مما أضعف

---

(١) الطبري : تاريخ ٦١٧/٦ ، ابن الأثير : الكامل ٥ ١١٣ـ ، ١١٤ اليعقوبي : تاريخ ٥٦/٣ ـ ٥٧ خليفة بن خياط : تاريخ ٣٣٣/١ ، البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٣١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤١١/٢ ـ ٤١٢ .

(٢) فلها وزن : الدولة العربية ص ٣١٢ .

سيطرة العرب في هذه النواحي[1] .

وشهدت الجبهات الخارجية : ما وراء النهر ، ارمينية واذربيجان ، البحر المتوسط ، ما وراء **البرنية** . . هجمات عسكرية وحروبا ولكن الحصيلة النهائية بحساب الخسائر والأرباح لم تجلب للدولة مكسبا كبيراً ، ذلك انها كانت على العموم حروبا (تكتيكية) اذا صح التعبير ، لم تأت بنتائج حاسمة ، ولم تستبدل خرائط الدولة بأخرىٰ جديدة كما حدث مثلا في عصر الوليد . والحروب الجانبية ، أو التكتيكية ، ما لم تعمل ضمن تصور استراتيجي واضح بعيد ، وتخدم هذا التصور ، فانها لا تأتي بشيء . . انها اشبه بمحاولات صغيرة لا تملك ثقلا كافيا لتغيير أبعاد الوقائع التاريخية وصياغة ابعاد اخرىٰ جديدة .

ولنتابع بعضا من هذه المعارك ، كما يرويها لنا المؤرخون القدامىٰ ، لكي نتبين الحجم الحقيقي للنتائج التي تمخضت عنها .

في سنة ١٠٢ هـ عبر سعيد بن عمرو الحرشي ، والي خراسان ، النهر وغزا الصغد وكانوا - كما مرّ بنا - قد نقضوا العهد وارتدوا واعانوا الترك الوثنيين على المسلمين ، فسألوه الصلح علىٰ أن يرجعوا الى بلادهم ويؤدوا الجزية . لكن سعيدا اصر على قتالهم فهزمهم وحلفاءهم الأتراك وقتل منهم عددا كبيرا وسبىٰ ذراريهم[2] . وبعد اقل من سنتين اعاد الحرشي الكرة وقتل عدة آلاف من الصغد وغنم اموالهم وسبىٰ ذراريهم ، ثم سار الى كش فصالحه اهلها على عشرة آلاف رأس من الأغنام . ورغم ان ملكها (سبغرى) قد حظي بالأمان الا ان الحرشي ما لبث ان صلبه [3] .

وفي عام ١٠٥ هـ قام مسلم بن سعيد بغزو مناطق الترك فيما وراء النهر فلم يفتح شيئا وما لبث أن قفل عائدا ، وقام بعد قليل بغزو احدىٰ مدائن الصغد هناك ، واسفر الهجوم عن مصالحة ملك المدينة واهلها[4] .

وشهدت الجبهة الشمالية في ارمينية والخزر عددا آخر من الهجمات ، فكانت احداها عام ١٠٢ هـ قادها عمر بن هبيرة ، يوم كان واليا علىٰ الجزيرة ، ضد المواقع البيزنطية باتجاه ارمينية فهزمهم وأسر منهم خلقا كثيرا قيل انهم بلغوا سبعمائة أسير[5] . وفي نفس السنة قام العباس ابن الوليد بهجوم ضد احد المواقع البيزنطية هناك وفتحه[6] . وشهدت المنطقة بعد أقل من سنتين أعنف المعارك عندما اجتاز جيش للمسلمين بلاد الخزر من ارمينية فتصدىٰ لهم هؤلاء في جمع كبير انضم اليه عدد من حلفائهم

---

(١) ماجد : التاريخ السياسي ٢٧٨/٢ وانظر : الطبري : تاريخ ٦٠٥/٦ - ٦٠٧ وابن الأثير : الكامل ٩٢/٥ .

(٢) الطبري : تاريخ ٦/ ٦١٢ - ٦١٤ ، ابن الأثير : الكامل ٩٥/٥ - ٩٦ ، خليفة بن خياط : تاريخ ٣٣٥/١ - ٣٣٦ .

(٣) الطبري : تاريخ ٧/٧ - ١٢ ، ابن الأثير : الكامل ١٠٧/٥ - ١١٠ .

(٤) الطبري : تاريخ ٢١/٧ .

(٥) الطبري : تاريخ ٦١٦/٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠١/٥ ، واليعقوبي : تاريخه ٥٨/٣ .

(٦) الطبري : تاريخ ٦١٦/٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠١/٥ .



الأتراك وجرىٰ قتال شديد استشهد فيه عدد كبير من المسلمين وسيطر العدو علىٰ معسكرهم وغنموا جميع ما فيه ، ففرّ المنهزمون الى الشام وتلقوا من الخليفة توبيخاً وتعنيفا[1] .

وطمع الخزر وسعوا الى استغلال انتصارهم هذا فحشدوا حشودا كبيرة ، فما كان من الخليفة الا ان استعمل على أرمينية الجراح بن عبد الله الحكمي وأمدّه بجيش كثيف وأمره بغزوهم ، فتحرك الجراح علىٰ رأس قواته وانتهى به الأمر الى باب الأبواب فلم ير الخزر ، فدخل البلد وبث سراياه للإغارة علىٰ المناطق المجاورة ، وحينذاك تقدم اليه الخزر بقيادة ابن ملكهم ، وانتهت المعركة بهزيمة الخزر وقتل عدد كبير منهم وغنيمة أموالهم . وما لبث الحكمي أن هاجم (بلنجر) أحد اشهر حصونهم هناك ، وتمكن من اقتحامه بعد قتال مرير ضد الخزر وغنم جميع ما فيه ، وصالحه حصن آخر : (الوبندر) علىٰ مال يؤدونه اليه ، وكان هذا الحصن يضم عددا كبيرا من الأتراك . وقد استفزت هذه الانتصارات سكان المنطقة فتجمعوا وأخذوا الطرق علىٰ المسلمين . فكتب صاحب بلنجر ، الذي كان الجرّاح قد ردّ اليه امواله وأهله وحصنه ، وجعله عينا له ، يعلمه بذلك ، فعاد مجداً ، لكن الشتاء ادركه فأوقف تحركاته وكتب الى يزيد يعلمه بما فتح الله عليه وبما اجتمع من الكفار ، ويسأله المدد ، فوعده الخليفة بانفاذ مزيد من العساكر اليه ، لكنه توفي قبل تنفيذ ذلك[2] .

وفي البحر المتوسط قام والي افريقية ، يزيد ابن ابي مسلم ، عام ١٠٢ هـ ، بتوجيه قادته لمهاجمة صقلية « فغنم وسلم »[3] ، وفي السنة التالية تعرضت سردانية هي الأخرىٰ لهجوم شنه عليها احد رجالات بشر بن صفوان ، والي افريقية الجديد ، فعاد هو الآخر غانما سالما[4] .

ويبدو ان أكثر الحملات الحربية أهمية في عهد يزيد تلك التي قادها والياه على الأندلس السمح بن مالك الخولاني (١٠٠ ـ ١٠٢ هـ) وعنبسة الكلبي (١٠٢ ـ ١٠٧ هـ) في جنوب غربي فرنسا (بلاد الغال) . فقد حاول السمح فتح امارة سبتمانيا (أي المدن السبع) المحاذية لحدود اسبانيا من جهة الشمال الشرقي ، وذلك لتأمين حدوده الشمالية ، لا سيما وان هذه الامارة كانت جزءً من الدولة القوطية التي قضىٰ عليها الفاتحون في اسبانيا ، فحاصر عاصمتها أربونه واستولىٰ عليها ، ثم اتجه شمالاً بغرب نحو نهر الجارون واستولى على مدينة طولوشه (تولوز) وتوغل في دوقية اكيتانيا المجاورة ، ولكن دوقها المسمىٰ يودو التقىٰ به سنة ١٠٢ هـ بالقرب من تولوز حيث دارت معركة كبيرة انتهت بهزيمة السمح واستشهاده وانسحاب فلول جيشه بقيادة عبد الرحمن الغافقي الى مدينة أربونة التي اصبحت قاعدة عربية لغزو ما وراء جبال

(١) ابن الأثير : الكامل ٥/١١٠ ـ ١١١ .

(٢) الطبري : تاريخ ٧/١٤ ـ ١٥ ـ ٢١ ، ابن الأثير : الكامل ٥/١١١ ـ ١١٣ ، اليعقوبي : تاريخه ٣/٥٦ ، ٥٨ ، وانظر خليفة بن خياط تاريخ ١/٣٣٦ ـ ٣٣٩ .

(٣) خليفة بن خياط : تاريخ ١/٣٣٣ .

(٤) المصدر السابق ١/٣٣٦ .

البرتات [١] .

وقد خلف السمح والٍ آخر اسمه عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٢ - ١٠٧ هـ) تابع حركة الفتح في تلك النواحي فأتم فتح اقليم سبتمانيا ثم اتجه شرقا حتىٰ بلغ نهر الرون وفتح اقليم بروفانس في الجنوب ثم صعد مع النهر شمالا حتىٰ بلغ مدينة ليون واحتلها ثم توغل في الاقليم المعروف باسم برغونة (برجانديا) حتىٰ بلغ مدينة أوتون في اعالي الرون ، ولكن اهالي البلاد قطعوا عليه خط رجعته وانتهى الأمر باستشهاده هو الآخر سنة ١٠٧ هـ [٢] . وقد جاء أغلب انتصارات عنبسة في فرنسا بعد وفاة يزيد ، في عهد خلفه هشام بن عبد الملك . كما انه يمكن التخمين بأن محاولات كلّ من الرجلين ، السمح وعنبسة ، جاءت بعيدا عن الاشراف والأوامر المباشرة للخليفة الأموي البعيد في دمشق ، لا سيما وان الأندلس كانت قد أصبحت يومذاك ولاية شبه مستقلة ، فما شهدته هذه الجبهة من هزائم وانتصارات لا يمكن ان نربطه مباشرة بسياسات يزيد وخططه الحربية ، علىٰ خلاف ما كان عليه الحال في ارمينية علىٰ وجه الخصوص .

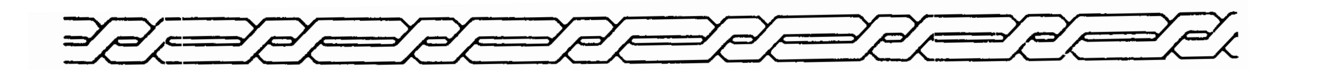
(٥)

وفي ميدانيْ التنظيم الاداري والاقتصادي نلمح الشيء نفسه .. الفوضىٰ والارتجال وفقدان الستراتيجية ، فها هنا - أيضا - نجد نقيض ما خبرناه في عصر عمر بن عبد العزيز .

كانت الادارة في عهد عمر أداة لتنفيذ البرنامج العقائدي للدولة ، ومن ثم فانه ما ان تسلم الحكم حتى قام بسلسلة شاملة من التغييرات لجعل هذه الأداة قديرة علىٰ اداء دورها ذاك ، فصفى معظم الكوادر الادارية القديمة وأحلّ - بدلاً منها - عناصر جديدة ممّن تقدر على تحمل المسؤولية ومواصلة طريق التغيير حتىٰ نهايته ، وأكد علىٰ فكرة التجانس الوظيفي من أجل ان يكون كافة موظفي الدولة مؤمنين بالبرامج الجديدة قديرين علىٰ هضمها وتمثلها وتنفيذها ، بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية أو السياسية أو المذهبية ، وفتح الطريق واسعاً أمام كل الناس للوصول الىٰ أعلىٰ سلطة في الدولة لعرض مشاكلهم وظلاماتهم من أجل السعي لحلها . ووضع كافة موظفيه تحت رقابة مركزية دائمة لكي لا يشذّوا أو ينحرف بهم طريق ، واكد عليهم مرارا أن الادارة الناجحة هي تلك التي تعرف كيف تربط الفكر بالعمل ، وتحيل النظريات الى وقائع تحيا وتتنفس .. ودفعهم الى بذل طاقاتهم كافة من اجل جعل صيغ الحياة في الدولة الأموية تتلاءم وتنسجم مع اطروحات كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام .. وسدّ علىٰ اداريه كافة المنافذ التي قد يتسلل منها الهواء الفاسد فيدفعهم الى الاستغلال والابتزاز .. الى الأخذ بدلا من العطاء ،

(١) أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٢٩٣ (دار النهضة ، بيروت - ١٩٧١) انظر كذلك : المقري : نفح الطيب ٢/١٣٨ ، تحقيق احمد فريد رفاعي (القاهرة - ١٩٢٦) .

(٢) العبادي : في التاريخ العباسي ص ٢٩٣ ، المقري : نفح الطيب ٢/١٣٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ص ٢٧ ، تحقيق ليفي بروفنسال (ليدن ١٩٤٨ - ١٩٥١) .



ودفعهم في مقابل ذلك الى ان يحيلوا اجهزة الدولة الى اداة هدفها العطاء الدائم . . وكان هو نفسه اداريا من طراز أوّل ، تميزت شخصيته الادارية بالسمات الأساسية التي مكنته من تحقيق تلك الانجازات الكبيرة في ميدان الادارة : الايجابية الواقعية ، المرونة والذكاء[1] .

اما يزيد فكان على النقيض من ذلك ، انه كما قال عنه فلهاوزن « لم يقدم على احداث تغيير منظم وشامل . . وكان لا يمنع ولاته اذا ما تجاوزوا ما أمرهم به ، وكان ضعيفا قليل الاهتمام والاكتراث بأمور الحكم »[2] . ويبدو أن أحد رجالات بني أمية البارزين وهو يزيد بن سعيد بن خالد بن عمرو قد نفذ من خلال ضعفه وغلب عليه[3] .

ولو تتبعنا الاجراءات الادارية التي اتخذها عبر سنوات حكمه الأربع فاننا سوف نجدها لا تعدو ان تكون سلسلة من الاقالات والتعيينات التي لم تستعن في كثير من الأحيان ببرنامج عمل واضح أو خطة ثابتة ، لأن هؤلاء الاداريين - على تغيرهم - لم يفعلوا شيئا ذا بال ، حسبما يتضح من الروايات التي تقدمها المصادر ، الأمر الذي جعل أجهزة الدولة الادارية تعاني من قلق مستمر وعدم استقرار ، هذا فضلا عن أن اختياره للرجال لم يتوخَ دائما البحث عن الكفاءة والاخلاص، بل كانت عوامل الاختيار غير الموضوعية ، وبخاصة مسألة الانتماء القبلي ، تلعب دورها الحاسم .

ومما زاد الأمر سوءاً ان أي موظف كبير يتم تعيينه ، يبدأ مهمته باقالة كافة الموظفين السابقين الذين اعتمدهم سلفه واستبدالهم بجماعة من الأنصار والمقربين بعيدا عن مشيئة الخليفة واختياره . وهنالك رواية ذات دلالة يوردها الطبري وابن الأثير وغيرهما ، تقول: لما ولي يزيد نزع أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن المدينة واستعمل عبد الرحمن بن الضحاك الفهري عليها ، واراد هذا معارضة ابن حزم فلم يجد عليه سبيلا حتىٰ تقدم أحد الرجال وشكىٰ ابن حزم مدعيا انه ضربه حدّين وطلب ان يقيد منه ، فلما اعلم يزيد بذلك كتب الى ابن الضحاك : أما بعد فانظر فيما ضرب ابن حزم (الرجل المذكور) ، فان كان ضربه في أمر بيّن أو أمر يختلف فيه فلا تلتفت اليه . فأرسل ابن الضحاك فاحضر ابن حزم وضربه حدين في مقام واحد ولم يسأله عن شيء[4] . فها هنا نجد العقاب ينفذ لغرض العقاب ، ولا شيء وراء ذلك . . ولا محاولة جادة لتفحّص البينات . .

ونستطيع ان نتلمّس هذا كله بمجرد القاء نظرة علىٰ قوائم عماله علىٰ البلدان والاقالة الرئيسية في الدولة . . في المدينة مثلا . . عزل الخليفة أبا بكر بن حزم وولاها عبد الرحمن بن

---

(١) انظر : عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز فصل (الادارة والتخطيط) الدار العلمية ، بيروت - ١٩٧٠) .

(٢) الدولة العربية ص ٣١٢ .

(٣) اليعقوبي : تاريخ ٣/٥٨ .

(٤) الطبري : تاريخ ٦/٥٧٤ - ٥٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ٥/٦٧ .

الضحاك بن قيس الفهري سنة ١٠١ هـ ثم عزله وولىٰ عبد الواحد بن عبد الله سنة ١٠٤ هـ وفي مكة عزل عبد العزيز بن عبد الله بن خالد ابن أسيد وضمها مع الطائف وولى عليهاعبد الرحمن بن الضحاك سنة ١٠٣ هـ ثم عزله واستبدله بعبد الواحد النضري سنة ١٠٤ هـ وعلىٰ اليمن أقرّ الخليفة عروة بن محمد، العامل السابق ، وعلىٰ اليمامة سفيان بن عمرو العقيلي . اما في البصرة فقد ولىٰ عبد الملك بن بشر بن مروان ، ثم سعيد بنعمرو الحرشي ثم حسان بن عبد الرحمن بن مسعود الفزاري من أهل دمشق ثم فراس بن سميّ الفزاري وهوزوج ام عمر بن هبيرة الفزاري والي الجزيرة . وفي الكوفة أقر يزيد عبد الحميد بن عبد الرحمن ، ثم عزله مسلمة بن عبد الملك لما ولاه يزيد بلاد العراق والمشرق بعد انتصاره على المهالبة وولاها محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ، فلما حل ابن هبيرة محل مسلمة ، وهو قيسيّ صميم ، عزله سنة ١٠٣ هـ وولىٰ بدلاً منه الصعر بن عبد الله من مرّة غطفان . أما في خراسان فقد عين سعيد بن عبد العزيز بن أبي العاص ، وكان يسمىٰ سعيد خزينة ، وقد لقب بذلك لأنه كان رجلا لينا متنعما ، وخزينة هي الدهقانة ربة البيت . وكان سعيد قد تزوج ابنة مسلمة فلهذا استعمله على خراسان . وقد بدأ ولايته بأن القىٰ القبض علىٰ كافة عمال عبد الرحمن بن عبد الله الذين ولوا أيام عمر وحبسهم ، ولكنه ما لبث أن أطلقهم [1] . وقد تعرض سعيد للعزل على يد ابن هبيرة حيث ولى مكانه سعيدا بن عمرو الحرشي سنة ١٠٤ ، ثم عزله في العام نفسه وعين مكانه مسلم بن سعيد ابن أسلم بن زرعة الكلابي ، بسبب ما عرف عن الحرشي من استخفاف بابن هبيرة . وفي سجستان ولّىٰ الخليفة القعقاع بن سويد من بني منقر من اهل الكوفة فعزله ابن هبيرة وولى السيال ابن المنذر بن عوف بن النعمان . وفي السند ولي هلال بن احوز من قبل مسلمة سنة ١٠٢ هـ فعزله ابن هبيرة ـ خليفة مسلمة في العراق والمشرق ـ وولاها سنة ١٠٣ هـ عبيد الله بن علي السلمي ، ثم عزله وولاها عبد الحميد بن عبد الله بن غطفان . وفي البحرين واليمامة عين ابراهيم بن عربي ، وفي ارمينية معلق البهراء من أهل حمص ، ثم عزله الخليفة سنة ١٠٤ وولاها الجراح الحكمي . وفي الجزيرة تعاقب على الولاية عمر بن هبيرة وفايد بن محمد الكندي والعرس بن قيس الكندي . وفي افريقية عزل اسماعيل بن عبيد الله وعين يزيد بن أبي مسلم وأعقبه بشر بن صفوان الكلبي الذي كان قبل ذاك عاملا على مصر [2] .

ولا بدّ من الاشارة هنا الى ان اكبر رجليْ ادارة في عهد يزيد كانا ولا ريب : مسلمة بن عبد الملك وعمر بن هبيرة ، عاملاه علىٰ العراق والمشرق ، أما مسلمة فقد كان أخاه ، رغم انه يجب الا ننتقص من امكانات الرجل ودوره

---

(١) الطبري : تاريخ ٦ /٦٠٥ ـ ٦٠٦ ، ابن الأثير : الكامل ٥/٩٠ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخ ١/٣٤٠ ، الطبري : تاريخ ٦١٨/٦ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٧/١٥ ـ ١٧ ، ابن الأثير : الكامل ٥/١٠١ ـ ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ .

الكبير في الانتصار على ثورة المهالبة ، وفي اقرار الأمور في العراق . لكن مسلمة كان رجل حرب وليس رجل ادارة ، وبعد انتصاره على ابن المهلب كان يمكن أن يفيد الخليفة منه في ساحات القتال في الداخل والخارج ، لا أن يضعه في مكان هو ليس مكانه الحقيقي . وهكذا يبدو ان مسلمة لم يحقق النجاح الاداري المطلوب ، فلم يرفع من خراج ولايته شيئا للحكومة المركزية (١) ، واضطر الخليفة أخيراً الى استدعائه الى دمشق واستبداله بعمر بن هبيرة الفزاري .

وفي رواية للطبري وابن الأثير ان بعض ولد عبد الملك بن مروان كان قد تزوج بنتا للحجاج فكان ابن هبيرة يقدم لها الهدايا ويبرها وييسّر عليها ، فكتبت الى أبيها تثني عليه ، فعظم شأنه في الشام ، فلما استخلف عمر بن عبد العزيز استعمله على الجزيرة ، وحين ولي يزيد ، ورأى ابن هبيرة تحكّم المغنية حبّابة به تابع هداياه اليها والى الخليفة نفسه ، فسعت له في ولاية العراق ، فولاه يزيد اياه (٢) .

وهكذا كان اختيار هذين الرجلين لأخطر منصب اداري في الدولة لم يتم على ما يبدو وفق شروط الانتقاء الموضوعية التي تعامل معها عمر بصرامة والتي تتضح بمجرد الاطلاع على قوائم اداريه ، وانما كانت هناك عوامل (خاصة) كان لها ثقلها في ذلك هذا فضلا عن تأثيرات السياسة القبلية التي اعتمدها يزيد .

والمهم اننا بتتبع القوائم الادارية في عهد يزيد يتبين لنا انه اتى على عمال عمر جميعا ، واليعقوبي يشير الى ذلك بوضوح بقوله« عزل يزيد عمال عمر جميعا » (٣) . ولقد كان هذا الاجراء بحد ذاته بعيدا عن الحكمة كل البعد ، فليس المهم في ميدان الادارة هو استبدال الرجال بآخرين ، وكأن هذا الاستبدال هو هدف بحد ذاته ، وانما المهم هو اعتماد اكثر الرجال صلاحية كل في المكان المناسب . ولما كان رجال عمر قد تم اختيارهم وفق أشدّ الصيغ الموضوعية صرامة ، ولما كانوا قد حركوا ميدان الادارة وخبروه عبر سنيّ عملهم تحت اشراف عمر ورقابته المركزة ولما كان معظمهم قد عرف كيف (يتطهّر) من كل دنس قد يشده الى اسفل ويحيل منصبه الى اداة كسب شخصي على حساب الأمة والدولة على السواء ، فان لنا أن نخمّن حجم الخسارة التي منيت بها الادارة الأموية من جراء اقدام الخليفة الجديد على عزل جلّ عمال سلفه .

والروايات عن اجراءات يزيد الاقتصادية تشح حتى تكاد تنعدم ، وليس ثمة سوى اشارات متفرقة ، ان دلت على شيء فانما تدل على انه ها هنا ايضا ابحر ضد التيار المنظم الكبير الذي صاغه عمر وسهر عليه وبذل من اجله زهرة سني حكمه من اجل حل المشكلة الاجتماعية والمالية حلاً عادلاً يكفل ايجاد

(١) الطبري : تاريخه ٦/ ٦١٥-٦١٦ ، ابن الأثير : الكامل ٥/٩٧-٩٩ .

(٢) الطبري : تاريخه ٦/٦١٥ ، ٦١٦ ، ابن الأثير : الكامل ٥/٩٧-٩٩ .

(٣) تاريخ ٣/٥٤ .

المجتمع المتوازن المتكافل ، كما أراد الله ورسوله ان يكون .

لقد رأينا كيف ان الرجل بدأ انقلابه الاجتماعي من مركز الثقل الحقيقي : الخليفة نفسه والحزب الأموي الحاكم والجهاز الوظيفي ، من اجل كفهم عن الأخذ ودفعهم الى التجرد والعطاء . ومضى في الجهة الأخرى ، وعلىٰ خط متواز ، يقدم لجماهير امته أوسع الخدمات والعطاءات والضمانات الاجتماعية : تقليصا للضرائب ، واتباعا للأساليب العادلة في الجباية ، وتوسيعا عجيبا لفكرة الضمان الاجتماعي ، واعتمادا لكافة الصيغ والسياسات لتنفيذ هذه الفكرة علىٰ أوسع نطاق . كما رأينا كيف انه نظم سياسات الموازنة المالية فلم تعان دولته طيلة سني حكمه عجزاً ماليا من جراء الانفتاح المدهش على جماهير أمته ، فكان فتح باب التجارة الحرة ، والتأكيد على الزكاة ، واعتماد سياسة زراعية سليمة ، والحدّ من استنزاف اموال الدولة في الصراعات الداخلية ، ووقف اعمال الابتزاز والاستغلال التي كان الموظفون يمارسونها في مختلف العهود . . كان لهذه الاجراءات وغيرها الدور الكبير في تحقيق الموازنة المالية وتمكين الدولة من المضي في تنفيذ برامجها الإجتماعية حتى نهاية الطريق [1] .

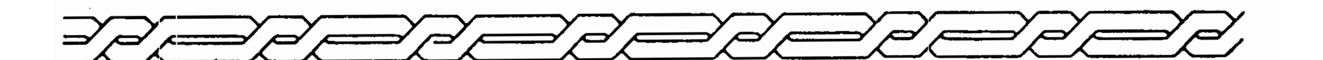
ما الذي فعله يزيد في هذا المجال ؟

ليس ثمة قدر كاف من الروايات ، ولكن الاشارات القليلة ربما تمنحنا ما يلقي ضوء على الموضوع ويوضّح الاتجاه العام للسياسات الاجتماعية والمالية في عهده . . « فمن ذلك ـ يقول ابن الأثير ـ ان محمداً بن يوسف ، اخا الحجاج ، عين على اليمن ، فجعل عليها خراجا مجددا ، فلما ولي عمر كتب الى عامله يأمره بالاقتصار على العشر ونصف العشر وترك ما جدده محمد بن يوسف ، وقال : لئن يأتيني من اليمن حفنة ذرة أحب الي من تقرير هذه الوضيعة !! فلما ولي يزيد بعد عمر امر بردها وقال لعامله : خذها منهم ولو صاروا حرضا » [2] .

عمر يبعث الى عامله على اليمن ويقول له : لئن لم ترفع الي من جميع اليمن الا حفنة من كتم فقد علم الله اني بها مسرور اذا كانت موافقة للحق [3] . ويقول في رسالة أخرى « فوالله لو لم يأتني من قبلك إلّا كفا لرأيته من الله قسما عظيما » [4] . ويزيد بن عبد الملك ينادي عامله هناك «خذها منهم ولو صاروا حرضا » !!

فها هنا نجد « التضادّ » الكامل في السياسة الاقتصادية بين رجل يريد ان يجعل دولته دولة خدمات وضمان اجتماعي وبين رجل يريد ان يجعلها دولة أخذ واحتراف سياسي ، ولو جاء هذا على حساب الفلاحين الذين يشكلون عمود الأمة الانتاجي ومصدر رزقها وبركتها . . وانتهى اخيرا الى نتيجة معاكسة تماما لما كان يزيد

(١) انظر : عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فصل (المال والاقتصاد) .
(٢) الكامل ٥/٦٧ ـ ٦٨ .
(٣) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٣ .
(٤) المصدر السابق ص ٦٥ ـ ٦٦ .



يريده : وهو تنمية مالية الدولة !!

وثمة رواية اخرى في نفس الاتجاه . . رسالة بعث بها يزيد الى عمر بن هبيرة عامله على العراق يأمره ان يمسح السواد فمسحه سنة ١٠٥ هـ وزاد الضرائب على النخل والشجر ، وألحق ضرراً بالمزارعين ، وأعاد اعمال السخرة التي أوقفها عمر بن عبد العزيز ، كما احيا تقاليد تقديم الهدايا وضرائب النيروز والمهرجان التي ألغاها عمر[(١)] .

هذا في العراق ، وأما في المغرب فقد أعاد واليه يزيد بن أبي مسلم العمل مع البربر بسياسات الحجاج المالية التي تقضي بوقف هجرة المزارعين ممن اسلموا حديثا الى المدن ، وارغامهم على العودة الى مزارعهم وفرض الجزية عليهم رغم اعتناقهم الدين الجديد الأمر الذي انتهى ـ كما رأينا ـ بثورتهم عليه وقتلهم إياه [(٢)] .

واذا كان عمر بن عبد العزيز يفرض على نفسه وموظفيه تقشفا صارما في التعامل مع أموال الدولة العامة كيلا تنفق في غير اماكنها الحقيقية ، ويكتب الى عامله على المدينة يؤنبه على اسرافه في استخدام الورق والشمع ، ويتهكم به ، وقد طلب الأخير مخصصاته من الورق والشمع قائلا « لعمري لقد عهدتك يا ابن ام حزم وانت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة من غير مصباح »[(٣)] . ويكتب الى عامله على اليمن ، وقد ابلغه انه ضيع دنانير من دخل اليمن « . . اني لست اتهم دينك ولا امانتك ، ولكني اتهم تضييعك وتفريطك ، وأنا حجيج المسلمين في مالهم »[(٤)] . واذ يرفض عمر بن عبد العزيز استلام سلة من تمر اهديت اليه لأنها نقلت على دواب البريد ، ويطفىء الشمعة وهو يقرأ رسالة شخصية خاصة به ، لأنه لا يريد استغلال أموال الدولة . . إذ كان عمر يمارس هذا وذاك وغيره كثير مما وقفنا عنده طويلا في كتاب (الملامح) ، نجد يزيد بن عبد الملك لا يتردد في دفع ثلاثة آلاف دينار ـ على سبيل المثال ـ ثمنا لجارية أعجب بها [(٥)] ، ويبعث الى عامله على مكة ان يدفع لأحد المغنين الف دينار نفقة لطريقه « ويحمله على ما شاء من دواب البريد » !! لأنه أحبّ ان يستمع الى أبيات من الشعر كان الرجل قد لحنها[(٦)] .

وفي مقابل هذا كله ، لا نجد في عهد يزيد اي اهتمام جاد بمسألة توزيع الثروة وتنفيذ برامج الضمان الاجتماعي التي قطع فيها عمر خطوات واسعة ، كما لا نجد اهتماما كافيا بمسألة الإعمار والاصلاح الاقتصادي التي هي قاعدة كل جباية . . وأغلب الظن ان طرائق الاثراء غير المشروع لافراد الحزب الحاكم وكبار موظفي الدولة قد عاد سيرته الأولى ، هذا فضلا عن ان اعتماد السلاح لمجابهة حركات المعارضة في الداخل استنزف ولا ريب الشيء الكثير من امكانات الدولة المالية .

---

(١) اليعقوبي : تاريخه ٥٧/٣ .
(٢) الطبري : تاريخه ٦١٧/٦ ، ابن الأثير : الكامل ١٠١/٥ .
(٣) ابن الحكم : سيرة عمر ص ٦٤ ـ ٦٥ .
(٤) المصدر السابق ص ٦٩ .
(٥) المسعودي : مروج ١٩٦/٣ ـ ١٩٧ .
(٦) المصدر السابق ١٩٧/٣ ـ ١٩٨ .

وخلاصة الأمر ان يزيد ، ها هنا ، كما هو الحال في القطاعات الأخرى ، كان يفتقد الرؤية الواضحة والاستراتيجية المرسومة ، والالتزام الجاد، ومن ثم فلا فائدة منه ان يواصل الطريق الذي شقه عمر بن عبد العزيز . . على العكس ، فان فوضى كهذه تحكم السياسات الاجتماعية والاقتصادية والمالية ، لا بد وان تقود الى تدمير نسبي أو شامل للكثير من انجازات عمر ، سواء تعمد الخليفة الجديد ذلك أم لم يتعمد فالنقد التاريخي ينصب على ما يقع فعلا ويتشكل في الزمان والمكان ، لا على ما يدور في النيّات . .

ومن خلال هذه الفوضى والاضطراب اللذين اخذت الدولة تعاني منهما في سياساتها تلك نشطت الدعوة العباسية السرّية وانتشرت خلاياها في الأقاليم البعيدة ، وليس كما يظن بعض المؤرخين المعاصرين من ان سماحة عمر هي التي فتحت الطريق أمام دعاة بني العباس . . ذلك انه ما لم توجد خميرة الثورة وتتجمع اسبابها الحقيقية فليس بمقدور قوة في الأرض أن تسوقها الى النمو والنجاح .

يقول الدينوري ان دعاة العباسيين كانوا يسيرون في ارض خراسان منذ سنة ١٠١ هـ في عهد يزيد ويدعون الناس الى بيعة محمد بن علي العباسي ويزهدونهم في سلطات بني أمية لخبث سيرتهم وعظيم جورهم ، فاستجاب لهم بخراسان اناس كثير ، وفشا بعض امرهم فبلغ سعيدا واليها فارسل اليهم وسألهم : من انتم ؟ قالوا : قوم من التجار . قال : فما هذا الذي يذكر عنكم ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : اخبرنا انكم جئتم دعاة لبني العباس . اجابوا : ايها الأمير ان لنا في انفسنا وتجارتنا شغل عن مثل هذا ، فاطلقهم . فخرجوا من عنده يدورون كور خراسان ورساتيقها في عداد التجار فيدعون الناس الى الامام محمد بن علي ، فمكثوا على ذلك عامين . ثم قدموا على الامام بارض الشام فأخبروه بأنهم قد غرسوا بخراسان غرسا يرجون ان يثمر في أوانه . ويتحدث الدينوري بعد ذلك عن اتساع نشاط الدعوة في العراق وخراسان طيلة السنين التالية في عهد يزيد وأخيه هشام الذي اعقبه حيث صلب اثنان من كبار الدعاة في خراسان[١] .

(٧)

ولا نتوقع ان تسود سياسات الدولة ومؤسساتها تقاليد وممارسات ثقافية ايجابية كما كان الحال في عهد عمر بن عبد العزيز ، ذلك المثقف الجاد والعالم المثابر والمربي الذكي . . الخليفة الذي لقب بمعلم العلماء [٢] ، والذي قال فيه مجاهد « اتيناه لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه » [٣] ، والذي « كانت العلماء معه تلامذة !! » ، والذي قال فيه احد عماله « ما التمسنا علم شيء الا وجدنا عمر اعلم الناس بأصله وفرعه » [٤] . . واما

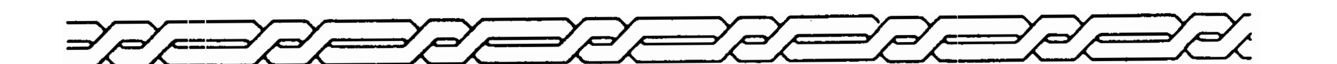
---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٣٤ ، وانظر : اليعقوبي : تاريخ ٥٦/٣ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٧١/٥ .

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ص ١٠٦ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٤/٩ .



على مستوى التجربة الروحية والالتزام الفكري العقائدي فلا يتسع المجال ها هنا حتىٰ لمجرد الاشارة المقتضبة اليه[1] .

ونتذكر ، ونحن نتحدث عن تأثير التقاليد الثقافية ـ التربوية للحكام ، رواية الطبري التي يقول فيها « كان الوليد بن عبد الملك صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع وكان الناس يلتقون في زمانه فانما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع . فولي سليمان بن عبد الملك فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وراءك الليلة ، وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتىٰ تختم ؟ ومتىٰ ختمت ؟ وما تصوم من الشهر ؟ » [2] .

اما يزيد فقد غرق حتىٰ شحمة اذنيه في حب الغناء وعشق المغنيات . . لم يكن يملك أبعد من ذلك أيما رؤية ثقافية أو تربوية . . لم يُعرف عنه انه تحرك يوما صوب آفاق تندّ عن حدود الطرب واللهو والشرب والهيام . . ليس ثمة لقاءات فكرية أو ندوات علمية أو حوار عقيدي . . لم نعثر له علىٰ رسالة واحدة يوجه فيها عماله وموظفيه وأبناء أمته الى هذا الهدف الفكري أو التربوي . . أو ذاك . . والنتيجة المحتومة ان تصاب اجهزة الدولة ومؤسساتها بشلل كبير يعيقها عن اداء اية مهمة ثقافية أو تربوية . . وان تنتشر ـ في مقابل ذلك ـ تقاليد اللهو والترف والعبث . . على الأقل على مستوى الطبقة الحاكمة . . لأن الأمم والشعوب كثيرا ما تجد نفسها محصنة بالعقيدة التي تنتمي اليها ضد تيارات الهدم والفساد . . ولكن الثغرات لا بد وان تنفتح يوما في جسدها لكي يتسرب الهواء الفاسد . . والمسألة مسألة زمن فحسب .

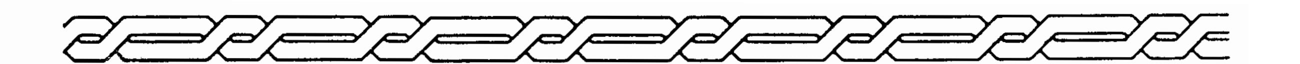
ومن خلال شهادات عدد من المؤرخين نستطيع ان نضع ايدينا على جوانب من الصورة التي كان يزيد يتشكل بها . .

كان الغالب على يزيد حبّ جارية يقال لها (سلّامة القسّ) وكانت لسهيل بن عبد الرحمن الزهري فاشتراها يزيد بثلاثة آلاف دينار فاعجب بها وغلبت علىٰ أمره فاحتالت أم سعيد العثمانية ، جدته ، في شراء جارية يقال لها حبابة ، قد كان في نفس يزيد ـ قديما ـ منها شيء ، فغلبت عليه ووهبت سلامة لأم سعيد . وكان هشام ينتقص يزيدا ويتمنىٰ موته ويعيب عليه لهوه بالقينات ، واما أخوه الآخر مسلمة فقد عذله بسبب ما قاساه الناس من الظلم والجور باحتجابه واقباله على الشرب واللهو ، وقال له : انما مات عمر امس وقد كان له من عدله ما قد علمت فينبغي ان تظهر للناس العدل وترفض هذا اللهو فقد اقتدىٰ بك عمالك في سائر افعالك وسيرتك . فارتدع عما كان عليه واظهر الاقلاع والندم واقام على ذلك مدة مديدة ، فغلظ ذلك على حبابة فبعثت الى الأحوص الشاعر ومعبد المغني تقول : انظر ما انتما

---

(١) يمكن للقارىء أن يرجع الىٰ كتاب (ملامح الانقلاب . . .) للاطلاع على مزيد من التفاصيل .

(٢) تاريخ ٦/٤٩٧ .



صانعان . فقال الأحوص بعض أبيات له وغناها معبد وأخذتها حبابة . فلما دخل عليها يزيد قالت : يا أمير المؤمنين ، اسمع مني صوتا واحدا ثم افعل ما بـدا لك ، وغنته ، فلما فرغت منه جعل يردد قولها :

فما العيش إلّا ما تلذ وتشتهي
وإن لام فيه ذو الشقاق وفنّدا

وعاد بعد ذلك الى لهوه وقصفه ورفض ما كان عليه[1] .

وذكر يزيد يوما أبياتا لشاعر قديم جاء فيها :

صفحنا عن بني ذهل
وقلنا القوم اخوان

فقال لحبابة : غنيني به بحياتي !! فقالت : يا أمير المؤمنين هذا شعر لا أعرف أحدا يغني به الاّ (الأحول المكي) : فقال : نعم ، قد كنت سمعت ابن عائشة يعمل فيه ويترك قالت : انما أخذه عن فلان ابن ابي لهب وكان حسن الاداء . فوجه يزيد الىٰ صاحب مكة : اذا اتاك كتابي هذا فادفع الىٰ فلان بن أبي لهب الف دينار لنفقة طريقه واحمله علىٰ ما شاء من دواب البريد . فلما قدم عليه غناه فاجاد وأحسن ، وقال : اعده ، فاعاده وأجاد و أحسن وأطرب يزيدا . . فوصله وكساه وردّه الىٰ بلده مكرما[2] .

قال يوما وقد طرب وعنده حبابة وسلامة القسّ : دعوني أطير !! قالت حبابة : على من تدع الأمة ؟ قال : عليك !!

وغنته يوما :

بين التراقي واللهاة حرارة
ما تطمئن ولا تسوغ فتبردا

فأهوىٰ ليطير !! فقالت : يا أمير المؤمنين إن لنا فيك حاجة ، فقال : والله لأطيرن ، فقالت : علىٰ من تخلف الأمة والملك ؟ قال : عليك والله . وقبل يدها . فخرج بعض خدمه وهو يقول سخنت عينك فما أسخفك !!

وخرجت معه إلىٰ ناحية الأردن يتنزهان فرماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت ، فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها حتىٰ أنتنت وهو يشمها ويقبّلها وينظر اليها ويبكي . فقيل له ان الناس يتحدثون بجزعك وان الخلافة تجلّ عن ذلك ، فاذن بدفنها مكرها وخرج لتشييع جنازتها ومعه أخوه مسلمة يسليه ويعزيه فلم يجبه يزيد بكلمة ، ولشدة جزعه لم يطق الركوب ، وخانته قدماه فعجز عن المشي وقفل عائدا قبل استكمال مراسم التشييع ، ولربما اقنعه مسلمة بذلك لئلا يرىٰ الناس منه ما يعيبونه عليه . وعاد الىٰ قصره كئيبا حزينا . وسمع جارية لها تتمثل بعدها :

كفىٰ حزنا بالهائم الصبّ ان يرىٰ
منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكىٰ ، وبقي بعدها أسابيع قليلة لا يظهر للناس ، اشار عليه مسلمة بذلك وخاف أن يظهر

---

(١) المسعودي: مروج ١٩٦/٣ ـ ١٩٧ ، ٢٠٢ ، وانظر : الطبري تاريخه ٢٢/٧ ـ ٢٤ وابن الأثير الكامل ١٢١/٥ ـ ١٢٢ .

(٢) المسعودي : مروج ١٩٧/٣ ـ ١٩٨ .



منه ما يسفهه عندهم ، وما لبث أن توفي [١] . ويشير ابن الأثير الىٰ انه كان مريضاً بالسل [٢] ، ويبدو ان انغماره بالملذات استنزفه استنزافا ، فجاء جزعه العنيف على حبابة فقضى عليه .

ويبدو ان يزيد عُرف عنه تبذله وميله الى اللهو قبل خلافته لأن عمر لم يكن يرغب في توليته عهده ، وكانت الخوارج تحرضه علىٰ عزله [٣] . وقد رأينا كيف انه قام بمحاولة جادة لتنحيته عن ولاية العهد وانه ربما يكون قد ذهب ضحية محاولته تلك [٤] .

وينقل ماجد [٥] عن المؤرخ الفرنسي De-nys de Teell [٦] قوله ان يزيد ظهرت له تصرفات غريبة اخذها عليه المؤرخون مثل أمره بقتل كل ما هو أبيض من كلاب وحمام وديوك ورجال شقر ، وقطع ذراع السارق وليس يده . . وأغلب الظن ان اشارة المؤرخ المذكور تتضمن قدرا كبيرا من المبالغة ، وان كانت تستمد مقولاتها من تهافت شخصية يزيد وضعفها وجنوحها العاطفي الذي يبدو بالنسبة للرجل ، اذا استخدمنا مصطلحات علم النفس ، تسلطا قهريا أو وسواسا مرضيا .

إن أحد الخطوط الفاصلة في تكوين شخصيتي عمر بن عبد العزيز وخلفه يزيد بن عبد الملك ، ان الأول كان يتميز بما يمكن تسميته (الحضور التاريخي) الذي ينبثق عن قوة الشخصية وحرصها العميق ، وعن وضوح الرؤية العقائدية وقوة التزامها ، ومن ثم تجد شخصية كهذه تتواجد في قلب الواقعة التاريخية بكثافة مدهشة ، وتمتد ارادتها ورؤيتها باختزال زمني فذّ الى امداء التاريخ : مكانه وزمانه .

ما من صغيرة وكبيرة الا والخليفة يشاهدها ويدلي فيها بدلوه ، ما من خط أو مساحة في تكوين العصر وصيرورته الدائمة الا وبصمات الرجل مطبوعة عليها . . انه ربما استخدمنا تعبير احد الشعراء المعاصرين ـ الكف التي تقف بمواجهة العصر .

على مدىٰ السنتين والنصف التي ساس فيها عمر دولته الكبيرة كان (حاضراً) في كل واقعة وكل حدث . . وقبل هذا وذاك ، كان قد فرض حضوره المعنوي المحبوب المنبثق عن تجرده والتزامه وحرصه وعمق رؤيته وشفافيتها ، في قلب كل مسلم لا بل في قلب كل مواطن ايا كان دينه ، لا بل في قلوب اعدائه ومعارضيه في الداخل والخارج حكاما في السلطة وناساً عاديين في الشوارع والأزقة والحارات . . ما غاب عمر يوما ـ وهو يصل ليله بنهاره عملا وكدحا ، ويتخلّىٰ عن الملذات المباحة والحاجات الضرورية لتأدية المهمة بأمانة ـ ما

---

(١) الطبري : تاريخه ٧/٢٢ ـ ٢٤ ، ابن الأثير : الكامل ٥/١٢٠ ، ١٢١ ـ ١٢٢ ، المسعودي : مروج ٣/١٩٨ ـ ١٩٩ . وثمة الكثير من التفاصيل عن هذا الجانب من حياة يزيد يمكن أن يجدها القارىء في كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني في اكثر من موضع من الجزء الثالث عشر .

(٢) الكامل ٥/١٢٠ .

(٣) ماجد : التاريخ السياسي ٢/٢٧١ .

(٤) عماد الدين خليل : ملامح الانقلاب ص ٩٦ ـ ٩٧ ، ١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٥) التاريخ ، السياسي ٢/٢٧٢ .

(٦) PP. 17- 18



غاب من وعي المواطنين ولا عن حبكة الفعل التاريخي لحمة وسدى ، ومكوكه يروح ويجيء لكي ينسج مساحة العصر الذي أراد له عمر أن يكون عصرا اسلاميا بمعنىٰ الكلمة .

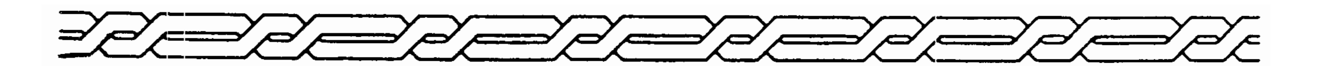
ومسألة الحديث عن الحضور التاريخي هذه تقودنا بالضرورة الى مسألة الدكتاتورية ، ان الدكتاتور ، ذلك الطاغوت الذي لا يعرف الا نفسه ، ولا يتحرك الا في اطار ذاته يريد أن يمارس هو الآخر نوعا من الحضور التاريخي في قلوب مواطنيه ووعيهم ، وفي امداء الحركة التاريخية ، لكنه اذ يفتقد قوة الشخصية الحقيقية وعضويتها وحرصها ورؤية العقائدية الموضوعية وتفانيها ، وعشقها للحق والخير والجمال ، ولا ينطلق الا من زاوية ذاته المتضخمة مرضيا كالسرطان ، بتشنج بالغ متوتر ، وانانية مشبوبة ، وكراهية متأصلة للحق والخير والجمال ، لا يستطيع بحال أن يحلّ المعادلة المطلوبة ، فيلجأ الى العنف والقسر والارهاب . واذا كان له ان يحضر علىٰ مستوىٰ الفعل التاريخي الخارجي ويتحرك على سطح المكان والزمان ، فانه في اعماق الناس ، في مدىٰ وعيهم وعواطفهم ووجدانهم غائب ، بل مرفوض . . وكلما ازداد احساسه بهذا التباعد ، هذا الانفصام ، هذا الغياب العميق عن قلوب مواطنيه ، كلها ازداد قهرا وتسلطا وارهابا .

ولكن من قال ان بمقدور قوة في العالم ان تفرض محبتها وحضورها في دائرة الوعي والوجدان اللذين لا يعرف تشكلهما وصيرورتهما الا الله سبحانه ؟ ان الحضور التاريخي للزعيم الناجح انما هو حضور حقيقي ، متدفق عضوي عميق . . وحضور الدكتاتور حضور مزيف ، متقطع متشنج ، يغطي السطح ، نعم ، لكنه لا ينفذ الىٰ الأعماق . . الأعماق التي يتشكل في مجاريها البعيدة ، المعقدة ، المتشابكة ، فعل التاريخ وتمخضه الدائم .

ومأساة يزيد بن عبد الملك انه لم يكن هذا ولا ذاك . . لم يستطع ان يفرض حضوره التاريخي طيلة السنوات الأربع التي تربع فيها علىٰ عرش دولة عظيمة تمتد من جبال الصين حتىٰ جبال البيرنيه . . لا زعيما معشوقا ولا دكتاتورا مرهوبا ، ورغم انه كان فخورا متكبرا ، كما يصفه المسعودي ، فانه ما كان يملك شخصية قوية يمارس من خلالها هذا الحضور سواء في شكله الصحي أم المرضي . . وزاد من عمق هذه المأساة انه جاء في اعقاب عمر بن عبد العزيز مباشرة : واحدٌ من اكثر زعماء التاريخ نجاحا في ملحمة الحضور التاريخي هذه . . فكأنه الأسود يقف الى جوار الأبيض والظل قريبا من النور ، فيزداد عتمة واظلاما . .

لقد حدثت تغييرات ادارية واسعة النطاق في مناصب دولته العليا ، ودارت معارك وشُنّت حملات ، ولم يكن من وراء هذا التغيير رؤية واضحة ولا هدف مرسوم ، بل لم يكن من ورائه اي حضور لشخصية الخليفة القابع في دمشق ، ينساق حينا وراء ضعفه فيذوب وجدا عند قدمي سلامة أو حبابة وهما تغنيان (ما العيش الا ما تلذ وتشتهي) ، ويبلغ به الأمر ان يقول لاحداهن يوما : أريد أن أطير !!

ويتمنىٰ ـ حينا آخر ـ ان يرجع الى الصواب ،



ان يمتلك زمام نفسه لكي يكون اكثر وعيا وحضورا فيما يجري علىٰ مساحة دولته الواسعة ، بل انه كان يتشبه احيانا ـ كما رأينا ـ بعمر ، وهو حديث عهد به ويعرف ما الذي حققته شخصية سلفه من انجازات وانتصارات . . ولكنه بتركيبه الخاص ، بنسيج شخصيته الهش الناعم ، بازدواج هذه الشخصية . . . بالتسلط القهري لمتطلبات عواطفه الجانحة ، غير المتوازنة ، ما كان بقادر علىٰ ان يسامق شخصية كشخصية عمر بن عبد العزيز ، بل ان يبلغ كعبها . .

ان طبيعته ـ كما يقول فلهاوزن ـ « كانت تختلف كل الاختلاف عن طبيعة عمر ، ولم تكن الصفة الغالبة عليه تتمثل في التحرّر من الاثم مما هو معروف عن عمر ، بل كانت تغلب عليه خفة الارستقراطيين . وهو قد كان نبيلا فارسا فتى سيدا اكثر منه حاكما ، فترك الولايات لامرائها ولم يهب وقته لأمور الدولة بل للهوىٰ والغناء والشراب . . . »[1] .

د . عماد الدين خليل

* * *
* * *

(١) الدولة العربية ص ٣١٢ ـ ٣١٣ .